الناصر محمد بن قلاوون

تأليف
أسامة حسن

الناصر محمد بن قلاوون

الناشر : **دار الأمل**

العنوان : ٨ شارع عبد العزيز حامد ـ أول الملك فيصل ـ الهرم

تليفون : ٥٨٦٠٨٩٢

رقم الإيداع : ٩٧/٥٦٤٧

الترقيم الدولي : 977 - 5823 - 02 - 1

طبع : **مطابع زمزم**

العنوان : العاشر من رمضان

جمع وإخراج : **أرمس للكمبيوتر**

العنوان : ٣٢ ش على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة ـ لاظوغلى

تليفون ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الأولى **١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م**

المقـدمة

طفل أتاه الملك وهو فى التاسعة من عمره ، وذلك بعد مقتل أخيه الأشرف خليل بن قـلاوون سلطان مصر ، والأشـرف هو الآخر ورث الملك خلفاً لأبيه السلطان المنصور قلاوون وهم من المماليك البحرية ..

والمماليك كـانوا فى الأصل أرقـاء - أى عبـيـد أتى بهم بعض سـلاطين الأيوبيين كى يتـدربوا على الأعمال العـسكرية ويكونوا فى خدمـة السلطان .. وكان السـلاطين يعتـقون من يكون متـميزاً فـيهم وأكـثر ولاء لهم .. وارتقى الميـزون منهم وذوى القدرات الخاصـة إلى أرفع المناصب فى الدولة إلى أن أنشأ أحدهم ، وهو عز الدين أيبك دولة باسمهم .

شنوا حـروباً كبـيرة ضـد الصليـبـيين وضد المغـول ووصلوا بملكهم إلى حدود أرمينيا .

ظل المماليـك يحكمون مصـر حوالى ٢٥٠ عامـاً بعد أن أقـاموا دولتين .. المـاليك البـحـرية من ١٢٥٠ : ١٣٨٢م .. والمـماليك البـرجـيـة من ١٣٨٢ : ١٥١٧م

والناصـر مـحمـد بن قـلاوون من المـماليك البـحـرية .. ورغم أن هؤلاء السـلاطين من المـمـاليك كـانوا يحكمـون البـلاد لمدد قـصـيـرة تنتـهى فى العادةباغتيالهم بواسطـة الطامعين.المنافسين لهم على كرسى الحكم . إلا أنهم تركـوا الكثيـر من الآثار تتمـثل فى المساجـد الشامـخة والأضـرحة الكبـيرة والأسبلة (جمع سبيل) وهـى الأماكن التى تمد الناس بالماء والتكايا والمدارس والمستشفيات ، وغيرها من العمارات الشامخة .

والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى تحوى سيرته هذا الكتاب بويع بالسلطة وسنه صغير لا يتجاوز التاسعة . لذلك تولى الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة فطمع فى الحكم واتفق مع الخليفة العباسى بالقاهرة على خلع السلطان الصغير ، وتم له ذلك وأخذ مكانه ، ولكن هذا التصرف لم يقبله المماليك فخلعوه ، ولاذ بالفرار إلى الشام .وتضطرب الأمور فى البلاد وتتم إعادة الناصر محمد إلى السلطة ،وذلك سنة ١٢٩٨ .. ويزداد نفوذ الأمراء ويتولى العرش « بيبرس » وظل يضغط على الناصر محمد بن قلاوون الذى عاد إلى مصر واستعاد العرش فى سنة ١٣٠٩ وبدأ ينتقم ويثأر ممن سلبوه ملكه ويقرب من وقفوا إلى جانبه واسند إليهم أرفع المناصب ..

وتمضى الأيام والناصر محمد بن قلاوون يبسط نفوذه ويوطد ملكه، وعلى المنابر تردد اسمه محفوفاً بالدعاء له ، وذلك فى مساجد مصر وسوريا وطرابلس الغرب .

ويذكر لنا التاريخ أن فى عهد الناصر محمد بن قلاوون دارت المعارك بين المماليك وبين قوات المغول انتهت بانتصار المماليك فى معركة« مرج الصفر ».. لقد قضى الناصر محمد فى الحكم ٤٣ سنة وترك من خلفه آثارا عظيمة . منها قلعة الجبل والقصر الأبلق بالقلعة وقناطر السباع على الخليج والخليج الناصرى بظاهر القاهرة .

لقد رسمنا من خلال هذا الكتاب صورة مصغرة للعصر الذى عاشه الناصر محمد بن قلاوون . نرجو ـ بعد أن تقرأوا الكتاب ـ حصولكم على الفائدة المرجوة .. وهى معرفة تاريخ بلادنا ومدى طمع الطامعين فيها . لتظل عيونكم مفتوحة تحرسها ، وأيديكم منتجة تضاعف من خيرها وتحقق لها الأمن والخير والسلام .

المؤلف

الـــرق

كان مــعظم رجال الجـيش فى العصر الـذى ولد فيه الناصــر محـمد بن قلاوون مــن المماليك ، والممــاليك هم العبـيد الذين كــانوا يشتــرون بالمال من أسواق الرقيق . وتجارة الرقيق كانت أمراً مألوفاً فى هذا الزمان ، وكان الرق قديماً قدم الإنسان على هذه الأرض .

وجـد الرق منذ أن وجـد الضـعـيف والقـوى ، واتسع نطاق الاسـترقــاق باتساع الحروب بين القبائل بعضها لبعض ، ولم تكن الحروب وحدها مصدر الرق . بل كان الفقر أيضاً من أسباب الاسترقاق ، وقد دفع الفقر بعض الناس إلى بيع أولادهم ، وأيضاً بيع أنفسهم .

ولكن بعض الناس وجدوا فى الرق قـيمة اقتصاديــة . فأقبلوا على خطف الصغار والكبار رجالاً كانوا أو نساء ، والأمم القديمة عرفت الرق ، وجعلت له أسواقــاً عامرة يباع فــيها الجوارى والعــبيد ، وفى الزمن القديم كــان الرقيق يعامل معــاملة غاية فى القسوة ، وينزل به أشد العقــوبات ، ولما جاء الإسلام حاول أن يقــضـى على الرق وينفر الـناس منه ومن تجارته ، ويقــول الرسول ﷺ « شر الناس من باع الناس » .

وحاول الإسلام بشتى الوسائل أن يعتق الأرقاء ، فكفارة الصوم عتق رقبة ، وكفارة الظهار عتق رقبة ، وكفارة الإيلاء عتق رقبة ، وكذلك القتل الخطأ .

وأمر المسلمين أن يحسنوا إليهم ، فيطعموهم مما يأكلون ، ويلبسوهم مما يلبسون ، ولا يكلفوهم من العمل فوق ما يطيقون .

وبهذا استطاع الإسلام أن يحد من الرق شيئاً فشيئاً ، والتزم الخلفاء الراشدون سياسة الرحمة مع الرقيق .

يقول عمر بن الخطاب « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

المماليك

كان الخلفاء العباسيون أول من أكثر من شراء الرقيق ، واتخذوا منهم خدماً لهم وجنداً وجوارٍ . فكن يعملن فى القصور ، وكانت منهن المغنيات والراقصات ، وكان الخليفة هارون الرشيد أول من وجه عناية خاصة بالجوارى ، والخليفة المعتصم أول من أكثر من شراء المماليك ، وكان يميل إلى شراء الأتراك بتأثير أمه التركية ، وقد أنشأ مدنية خاصة لهم هى « سرمن رأى » أو سامرا ، وكان أول من جلب المماليك إلى مصر هو أحمد بن طولون ، وهو ابن واحد من المماليك الأتراك . وجاء من بعده الفاطميون . الذين بالغوا فى شراء واستخدام المماليك ، وسار على نهجهم الأيوبيون الذين استعانوا بالمماليك فى الحروب ، غير أن الصالح نجم الدين أيوب ، وهو آخر سلاطين الأيوبيين كان أكثرهم شراء للمماليك على الإطلاق .

وكان أغلب المماليك يجلب مع تجار الرقيق . خاصة المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصرب والأتراك .

وأكثر هؤلاء المماليك كان من صغار السن الذين يوضعون ـ بعد شرائهم فى قلعة الجبل . حيث يوضع لهم برنامج خاص يمكن أن يطلق عليه « صناعة الفرسان » إذ يتضمن ذلك البرنامج تعليمهم الدين وحفظ القرآن وآداب

الشريعة الإسلامية ، وبعض الفقه ، إلى جانب التدريب على بعض التمرينات البدنية . فإذا ما وصلوا إلى سن البلوغ بدأت مرحلة جديدة فى التعليم يمكن أن يطلق عليها « التدريب الراقى » وفيها يدربون على السباحة وعلى الطعن والضرب بالسيف وركوب الخيل ، وجميع أصول الفروسية والمبارزة ، وفى تلك المرحلة كانت إقامتهم فى القلعة تشبه معسكر التدريب الأساسى ، فلا يخرجون من القلعة ، ولا يختلطون بعامة الناس ، ويستمر تدريبهم على أعلى مستوى حتى يصلوا إلى مستوى الضباط ، ومع ذلك يظلون أرقاء ، وتظل حياتهم تخضع لنظام الجندية إلى أن يستطيع أحدهم أن يثبت جدارته وكفاءته فى فن من الفنون الحربية ، وهنا يكافئه السلطان ويخرجه من زمرة الأرقاء إلى زمرة الأحرار ، وبعد أن يصبح المملوك حراً يخلع عليه السلطان ملابس تميزه عن الرقيق ، ويمنحه إقطاعاً يعيش من دخله ، وقد ترتفع وتسمو منزلة المملوك ويقوم بأعمال جليلة ، فيرقيه السلطان ويمنحه لقب الإمارة ، ومتى أصبح المملوك أميراً تحول إلى سلطان صغير . فأصبح له حرس خاص مكون من مماليك اشتراهم من أسواق النخاسة .

المنصور قلاوون

وقـلاوون هو والد الناصر مـحـمد واحـد من هؤلاء المـاليك ، أصله من الأتراك ، وقد جلب إلى مـصـر وهو صغيـر ، واشتراه الأمير عـلاء الدين أحد مماليك الملك العـادل الأيوبى بألف دينار ، ولذلك عرف بقـلاوون الألفى . ولما مـات أستـاذه علاء الدين انـتقل إلى خـدمة الملـك الصالح أيوب مع عـدد من المماليك ، وظل فـى خدمتـه إلى أن توفى الملك الصالح أيوب ، فظل فى خـدمة الجيش المصرى حتى تسلطن الظاهر بيبرس ، وفى ظل الظاهر تزوج قلاوون بابنه أحد الأمـراء المماليك ، واحتـفل الظاهر بهذا الزواج ، وقدم هدية عظيـمة لقلاوون ثم رقى قلاوون إلى وظيفة أتابك العـساكر فى عهد السلطان العادل سـلامش الابن الثـانى لـلسلطان « بيـبـرس » ولم يلبـث أن انتـزع الملك من سلامش وأصبح سلطان مصر ، وخـرج إلى المغول الذين احتلوا بلاد الشام ، وعين ابنه عليا وليا للعهـد .

ثم تزوج بزوجة جديدة وهى أميرة مغوليـة ، واحتفل بهذا الزواج احتفالاً عظيمـاً ، وصرف عليه أمـوالاً طائلة ، وكانت سـياستـه قلاوون هى سيـاسة أمـراء المماليك وهى الاكـثـار من شراء المـاليك ، لأن الاسـتقـرار فى الحكم

يتوقف على كثرة الأتباع . خاصة وأن أمراء المماليك يرون أنهم كلهم زملاء ، ولا يتربع على العرش إلا أكثرهم قوة وشجاعة ، وأعظمهم مهارة فى الحروب، وأكثرهم تابعاً وفرساناً ، وقد حقق قلاوون طموحه باغتصاب العرش من العادل سلامش عندما وجد فى نفسه القوة .

ثم تمادى قلاوون فى شراء المماليك ، وبلغ ما اشتراه منهم نحو اثنى عشر ألفاً ، وهو عدد لم يجتمع لأحد من سلاطين مصر من قبله ، وقد حرص على العناية بمماليكه عناية فائقة . حتى أنه كان يحرص على تفقد طعامهم بنفسه وتهذيبهم وتربيتهم تربية أخلاقية راقية ، وكف شرهم عن الناس .

وقد حرص قلاوون على إرضاء زملائه القدامى من أمراء المماليك ، وسعى لاكتساب رضائهم ، ولذلك أكثر من الوظائف فى البلاط الحكومى بصورة لم تعهد من قبل ليعيش منها زملاؤه حتى يقتل فى نفوسهم الحقد عليه بعد أن نجح فى الوصول إلى العرش .

محمد بن قلاوون

ولد محمد بن قلاوون سنة ٦٨٤هـ من أم مغولية هى الأميرة « أشلون خاتون » ووصلت بشرى مقدمه إلى والده وهو يحارب الصليبيين فى «خربة اللصوص » فاستبشر الملك المنصور بمولده ، وعمت الأفراح قلعة الجبل .

ورغم ضراوة العصر الذى تسوده الفوضى فى داخل البلاد ، وينعدم فيه الوفاء والإخلاص لتحل محله صفات من الغدر والتآمر حتى تصبح الخيانة وتوابعها من سمات العصر ، إلا بعض المماليك استطاع أن يسمو فوق هذه الدناءات ، وأن يكتب فى تاريخ مصر والإنسانية صفحات تشع بين سطورها آيات العظمة ، ومن هذه الأعمال ما قام به السلطان قلاوون وهو بناء مدرسة للتعليم المجانى ، وكان التعليم بالمجان وإنشاء مستشفى عظيم بنبل إنسانى سجله فى تلك الكلمة التى قالها عند الفراغ من بناء مستشفاه : « إنى بنيته لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ، ممن هو مثلى أو دونى ، للغنى والفقير ، للحر والعبد ، للذكور والإناث » .

ثم عزم قلاوون على السفر إلى بلاد الشام . فخرج ومعه ولداه « على »

و « خليل » وبعد أن تناولوا طعامهم فـاجأ المرض « عليا » بالليل فاضطر إلى العـودة إلى قلعة الجـبل آخـر النهـار ، واضطر السلطان إلى تأجـيل سفـره والعودة إلى قلعة الجبل ، وذلك لشده حبـه لابنه « على » وانتشرت الشائعات بأن «خليل » قد دس السم لـ « على » .

وأخذ قلاوون فى التضـرع إلى الله ويكثر فى الصدقات ، وبعث السلطان إلى رجل صوفى يدعى الشيخ عمر أبى السعود . فلما حضر إليه طلب منه أن يدعو لولده « على » فـقال له الشيخ « أنت رجل بخيل ، مـا يهون عليك شئ ، لو خـرجت للفقـراء عن شئ له صورة لعـملوا « وقتـاً » وتوسلوا إلى الله أن يهبهم ولدك لكان يتعـافى » فأعطاه السلطان مبلغاً كبيـراً من المال ، فعاد إليه الشيـخ وقال له « طيب خـاطرك ، الفقراء كلـهم سألوا الله ولدك ، وقـد وهبه لهم» . ولكن علياً مـات بعد أسبـوعين ، فحـزن عليه السلطان حزناً عظيـماً ، وحضـر الناس للصلاة على « على » فى القلعـة مع السلطان وولده « خليل » وكان حزن الناس عليه عميقاً ، لأنه كان دمث الخلق رقيق الطبع ، عطوفاً .

وبعد سنـتين خرج قـلاوون لتأديب الصليـبيـين فى « عكا » ولكنه رجع محمولاً على الاكتاف ، إذ فاجأه الموت قبل أن يبرح حدود مصر سنة ٦٨٩هـ فغسل وكفن ودفن تحت القبة العظيمة التى شيدها .

وبذلك حرم محمد بن قلاوون من أبيـه وهو طفل صغير ، ولم يكن أمامه إلا الانصراف إلى دروسـه . فتعلم القراءة والـكتابة والحساب وحـفظ القرآن ومارس الألعاب الرياضية .

وفى اليـوم التالى لدفن السـلطان قلاوون نودى فى الصـباح بالأشـرف «خليل » سلطاناً على البلاد ، فكان أول ما فعله هـو استدعاء القاضى للاطلاع على التقليـد الذى صدر له بولاية العهـد . فأخرجـه القاضى فوجده من غـير

توقيع والده فسأله السبب . فأجاب القاضى أنه قدمه أكثر من مرة للسلطان ، ولكنه كان يرفض التوقيع ويقول « أنا ما أولى خليلاً على المسلمين » ولكن « خليلاً » قال : « إن السلطان امتنع أن يعطينى وقد أعطانى الله » ومن صفات «خليل » نجد أن السلطان رفض أن يوقع له بولاية العهد . حيث كان «خليل» يختلف عن والده وعن أخيه « على » إذ كان غليظ القلب وعنيفاً مع الناس . خرج عقب توليه العرش إلى الشام ليتم ما أراده أبوه قبل وفاته ، وهو طرد الصليبيى من «عكا » واستطاع أن يستولى على المدينة فى سنة ٦٩٠هـ وأن يؤدب أهل عكا ويهدم حصونها ، ونقل معه الكثير من غنائم الحرب إلى مصر. وعاد إلى القاهرة وقد زينت له العاصمة أحسن زينة ، وأمامه عدد كبير من أسرى الصليبيين ، وجاءت البشرى إلى «خليل » بأن زوجته « اردكين » حامل ، وأن العرافين قالوا : أن الجنين ذكر ، وأصدر السلطان أوامره بأن يصنع عدد مائة شمعدان من النحاس ، ومائة أخرى نصفها من الذهب ونصفها من الفضة .

وما إن أقترب موعد الوضع ، وصدرت الأوامر بالاستعداد لإقامة حفل عظيم حتى خيب الله ظن العرافين ، وجاء المولود « بنتاً » فحزن خليل ، ولكنه أصدر الأوامر بالاستعداد للحفل . لأنه يريد ختان أخيه « محمد » وابن أخيه « موسى » . وأصدر أوامره بأن يرتدى الجميع من العساكر والأمراء ملابس الحرب كاملة ، ويلبسون خيولهم آلات السلاح ، وظهر السلطان وعليه ملابس الحرب ، وخرج الناس رجالاً ونساء وأطفالاً لرؤية الموكب ، ودار السقاه على الأمراء بأوانى الذهب والفضة والبللور ويقول المؤرخون إن نفقات الحفل فى عمل السماط والثياب وغير ذلك بلغت ٣٠٠ ألف دينار ، ولكن مدة حكم الأشرف « خليل » لم تدم اكثر من ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام ، وذلك

لأن المماليك كانوا يتحـينون الفرصة للقضاء عليه . لكنه كـان لا يعبأ بالمماليك لفرط شجاعته ، لكن الشجاعة لا تفيد أمام التآمر والخيانة فقد خرج ذات يوم للصيد وأثناء الصيد انقض عليـه بعض الأمراء وعلى رأسـهم « بيدرا » وقتلوه ولم يتجاوز عمره ثلاثين عاماً .

وقال بيدرا : إن القـتل كان بمشورة الأمراء ، لأن « خليلاً » كان يسـتهتر بهم ، ويحتقر مماليك أبيه ، ثم عاد « بيدرا » إلى الخيمة السلطانية وأقبل عليه الأمراء وقـبلوا الأرض بين يديه ، وحلفوا له وتلقب بالملك « الأوحـد » وقيل « المعظم » وقيل « القـاهر » ولكن الكثيـر من المماليك لم يوافقـوا على سلطنة « بيدرا » وكالعادة وقعت فتنة بين الماليك قتل فيها « بيدرا » .

الناصر محمد بن قلاوون
في سلطنته الأولى

كان « محمد بن قلاوون » صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره : لذا لم يكن من الغريب أن يبدأ التنافس بين الأمراء المماليك على الوصول إلى السلطنة . لكن لم تكن هناك شخصية قوية تفرض احترامها على الآخرين، لذلك رضى الأمراء أن يكون « محمد بن قلاوون » سلطاناً عليهم ، وأجلسوه على العرش سنة ٦٩٣هـ وهو في التاسعة من عمره ، واختير الأمير «كتبغا» نائباً للسلطنة ، والأمير سنجر الشجاعي وزيراً ، وبذلك أصبح « كتبغا » هو القائم بأعمال السلطنة فأرسل إلى نائب دمشق ـ حتى يتلافى ما يحدث من القلاقل ـ كتاباً على لسان السلطان خليل يقول فيه : « إنا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمد ، وجعلناه ولي عهدنا ، حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا » وطلب منه أن يذكر اسمه مع اسم السلطان الأشرف خليل في الخطبة ، وظل الأمر على ذلك حتى وصل إلى نائب الشام خبر مقتل السلطان خليل ، واختيار الناصر ، وهنا طلب منه كتبغا الاقتصار في الخطبة على اسم الناصر محمد بن قلاوون فقط .

وكان أول عمل قام به كتبغا هو القبض على كثير من المماليك الذى اتهموا بالاشتراك فى جريمة مقتل السلطان « خليل » ولكن سرعان ما حدث خلاف بين « كتبغا » و « سنجر » وبلغ « كتبغا » أن « سنجر » يكيد له ويدبر لقتله لكى يجعل السلطة له ، فأرسل « كتبغا » إلى السلطان الناصر يطلب منه أن يستدعى « سنجر » إليه لأنه قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء فبعث السلطان إلى « سنجر » يستدعيه ، ولكنه امتنع عن الحضور خوفاً على حياته لكن المؤامرات والخيانات أضعفت موقف سنجر عندما انضم عدد من رجاله إلى رجال « كتبغا » وتمكن عدد من رجال « كتبغا » من قتل « سنجر الشجاعى » الذى كان يكره الناس ، والذى قال فيه الشاعر :

تنبه يا وزير الأرض واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصماً فإنى أخاف عليك من نهش الشجاعى

وبموت « سنجر » هدأت الفتنة ، وحلف الأمراء للسلطان « الناصر » ونائبه وولى عهده « كتبغا » ودعى لهما فى الخطبة .

كتبغا يغتصب العرش

وهنا تظهر شخصية أثرت على كتبغا ، وهو الأمير حسام الدين لاجين وهو أحد الذين اشتركوا فى قتل السلطان خليل بن قلاوون ، وكان مختبئاً بجامع أحمد بن طولون ، لكنه سعى إلى لقاء كتبغا ليلتمس له العفو عن عند السلطان محمد بن قلاوون ، ولم يتردد كتبغا فى عمل ذلك ، بسبب صلات المحبة والصداقة التى كانت بينهما . فتشفع كتبغا عند السلطان حتى عفا عن لاجين .

ولكن مماليك خليل سرعان ما غضبوا من ذلك ، لأن لاجين ساهم فى قتل سيدهم (خليل بن قلاوون) ولذا قاموا بثورة كبيرة ، وسرقوا سوق السلاح ونهبوا الأسلحة ، وذهبوا إلى باب السعادة وأحرقوه ، ولكن « كتبغا» استطاع القضاء على الثورة وقتل بعضهم .

وبدأ « لاجين » يغرى صديقه « كتبغا » بالاستئثار بالحكم ، ويخوفه من« الناصر » لأنه متى كبر فلن يبقى عليه ، ولا على كل من له يد فى قتل أخيه « خليل بن قلاوون » وأخذ لاجين يزين الأمر « لكتبغا » بأن المصلحة تقضى بخلع « الناصر محمد بن قلاوون » وأن يتربع هو على العرش مكانه ، وما زال به حتى أقنعه ، فأخذ كتبغا يمهد للوثوب على العرش ، وكان أول ما فعله هو التحدث إلى الخليفة العباسى فى عدم أهلية « الناصر محمد بن قلاوون » لصغر سنه ثم اتبع ذلك بخطوة أخرى ، وهى التحدث إلى الأمراء والقضاة ، وأن البلاد فى حاجة إلى سلطان قوى ، ونجحت محاولات كتبغا ، فاقتنع الخليفة بوجهه نظره ، وكذلك وافق الأمراء والقضاه على خلع «الناصر محمد

بن قلاوون » وتولية « كتبغا » الذى بدأ ولايته بنقل « الناصر» وأمه من القصر ، وأسكنه فى بعض قاعات القلعة ، وانتهت بذلك السلطنة الأولى للناصر ، وكانت سنة إلا ثلاثة أيام .

ورأى « كتبغا » أنه لابد من مكافأة صديقه « لاجين » فعينه نائباً له ، ولكن سلطنة « كتبغا » لم تكن موفقة ، وذلك لأسباب خارجة عن إرادته ، وكان من أهم هذه الأسباب هو قدوم بعض المغول الذين فروا من ملكهم وإكرام كتبغا لهم ، وخلع لقب الإمارة على بعضهم ، مما أغضب المماليك ، وكان الشعب يكرههم ، لأنهم عباد أوثان ، ولا يصومون رمضان .

أما أهم الأسباب فكان الغلاء الذى اشتد ، وأهلك معظم الدواب بسبب تناقص فيضان النيل ، وارتفاع الأسعار ، وانتشار الوباء الذى أهلك معظم السكان ، بحيث كان يخرج من القاهرة ما يزيد على سبعمائة ميت كل يوم ، وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن فى مجموعات كبيرة بغير غسل أو كفن .

اغتصاب الأمير حسام الدين لاجين للعرش

حاول السلطان « كتبغا » أن يعالج هذه الكوارث . فأحضر من الشام الكثير من القمح حتى يخفف من أمر الغلاء والمجاعة . لكن الناس كرهته ، لأن حكمه اقترن بالكوارث والغلاء والنكبات .

وفى ظل تلك الظروف بدأ لاجين يتآمر على كتبغا ، ويعمل على اغتصاب العرش ونسى صداقته لكتبغا وما صنعه معه من تهريبه حينما كان مطارداً ضمن المشتركين فى قتل « السلطان خليل » ونسى تشفعه له عند السلطان وتعيينه له نائباً عنه فى السلطنة . تناسى كل ذلك وبدأ يتحين الفرصة للقضاء على « كتبغا » وواتته الفرصة حينما اعتزم كتبغا زيارة بلاد الشام ففى الطريق نزل كتبغا إلى أحدى القرى للاستراحة فانقض عليه « لاجين » ليقتله ، ولكن « كتبغا » أحس به فهرب إلى قلعة دمشق ، وأمام هذا الهروب استولى لاجين على أسلحته وخزائنه وحراسه ..

ثم اجتمع بالأمراء وشاورهم فى الأمر ، فوافقوا على اختياره سلطاناً ، بشرط ألا ينفرد برأى دونهم ، ولا يترك مماليكه يعبثون بمصالح باقى المماليك ، ولا يقدم أحداً من مماليكه عليهم ، ولا حتى مملوكه «منكوتمر» فأقسم « لاجين » أنه لن يفعل ذلك ، وعندئذ أقسم له الأمراء يمين الطاعة .

وبعد أن استتب له الأمر عفا عن « كتبغا » وعينه حاكماً على قلعة«صرخد » وأخذ عليه تعهداً أن لا يشاور أحداً ولا يكاتب أحداً

و« لاجين » كان أحد مماليك الأمراء ، ثم اشتراه « قلاوون » وأعتقه وزوجه إحدى بناته وجعله أميراً وعينه نائباً على قلعة دمشق ، ثم على دمشق كلها .

وبعد وفاة « قلاوون » وتولى « خليل » عزله عن نيابة دمشق ، الأمر الذى دفعه إلى الاشتراك فى قتل « خليل » وكان منصرفاً إلى شرب الخمر ، ولكن بعد أن أصبح سلطاناً تغير وأعرض عن اللهو وعن شرب الخمر ، وأصبح تقديره لأهل العلم عظيماً ، ويقال إن أحد العلماء دخل عليه وهم بتقبيل الأرض بين يديه فمنعه ، وقال له : « أهل العلم منزهون عن هذا » ومرة أخرى نراه يقبل يد أحد العلماء ، ثم عمل على نشر العدل وحماية صغار الجند من استبداد الأمراء ، وعمل على عدم الإسراف فى الملابس ، وجعل نفسه قدوة فى ذلك ، وحرص على رعاية الأيتام وحمايتهم ، وجدد مسجد أحمد بن طولون ، وأوقف عليه الأوقاف العظيمة ، ورتب فيه دروس التفسير والحديث والفقه الإسلامى ، ودروس الوعظ والارشاد ، وعمل على تعليم الأيتام قراءة القرآن .

وانخفض فى عصره أسعار القمح والشعير واللحم ، وعم السرور فى الناس ، ثم أراد أن يبعد كلا من الناصر محمد بن قلاوون والخليفة العباسى عن سكن القلعة :

فأمر بأن يكون للخليفة العباسى سكن خارج القلعة بالقرب من مسجد أحمد بن طولون ، فانتقل الخليفة إلى السكن الجديد .

وارسل فى طلب « الناصر محمد بن قلاوون » فحضر ومعه قاضى القضاة ، وتحدث « لاجين » مع قاضى القضاة ، وقال له : إن الناصر ابن أستاذه قلاوون ، وإنه يعمل فى السلطنة كنائب عنه ، إلى أن يحسن القيام

بأعبائهـا ، وأنه يرى أن يتوجه « الناصر » إلى الكرك ، ويبـقى بها حتى يبلغ مبلغ الرجـال ، ثم يعود إلى مصـر ليتسـلم العرش ، وإن كل ما يطمع فـيه « لاجين » هو حكم دمشق ، ثم نسى « لاجين » شـروط الأمراء عندما حلفوا له يمين الولاء ، فـرقى بعض مماليكه إلى مرتبة الإمـارة ومن بينهم « منكوتمر » الذى كانت له مكانة ممتازة ، وثقة كبيرة فى نفس « لاجين » .

وفجر تعيين « منكوتمر » الخـلاف بين « لاجين » والأمراء والجند . حيث أراد « لاجين » أن يجعل الأمير « منكوتمر » نـائباً للسلطنة ، فعارض الأمراء ، ولكنه تحداهم ، وعـينه نائباً له ، وزاد من تحـديه وأراد أن يجعله ولياً للعـهد حتى يصبح سلطاناً من بعده ، ولكن بعض الأمـراء نصحوه بالعدول عن ذلك حتى يتجنب ثورة الأمراء .

وسـعى الأمـراء إلى عـزل « منكوتمر » من منـصـبه ولـكن مكانتـه عند السلطان كانت أقوى من كل شئ . لكنه أحس أنه مكروه .

ثم خطا لاچـين خطوة أخـرى فى نـقض شـروط الأمـراء ، وعـزم على استبدال أمراء المماليك فى مصر بأمراء الشام . فاكتشف الأمراء الأمر فأخذوا حذرهم ، واتفقـوا على التخلص من « منكوتمر » والسلطان ونفـذوا مؤامرتهم يوم الخميس ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ حيث كـان « لاجين » صائماً وبعد ما أفطر دخل عليـه أحد الأمراء ليذكـره بصلاة العشاء ، وعـاجله بضربة من سيفه وانقض عليه باقى الأمراء المتآمرين ، ثم قتلوا « منكوتمر » وهكذا انتهت حياة « لاجين » بعد أن حكم سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوماً ، وكان عمره نحو خمسين عاماً .

عودة الناصر محمد بن قلاوون
إلى العرش

اجتمع الأمـراء بعد قتل « لاجين » وقام أميـر يدعى « كرجى » وقال « يا امراء أنا الذى قتلت السلطان « لاجين » وأخـذت بثأر أستاذى ، والملك الناصر صغير ما يصلح لهذا ، لا يكون السلطان إلا لهذا ، وأشار إلى الأمير «طغجى» وأكون أنا نائبه » .

لكن المجلس انفض دون اتخـاذ قـراراً فى من يتـولى السلطنة ، وشـاعت الفتنة ، وقتل الأمير « كرجى » و « طغجى » .

واستـقر الرأى على اسـتدعـاء السلطان الناصر مـحمـد بن قلاوون من الكرك حتى يتولى العرش ، وعرف الناصر بالخبـر ففرح فرحاً شديداً ، وأخذ يستـعد للعودة إلى مـصر ، وكان عـمر إذ ذاك أربع عشـرة سنة ، وسار فى موكب حافل إلى مـصر ، والأمراء والأعيان بين يديه حـتى دخل قلعة الجبل ، وكان أول قـرار اتخذه هو تعـيين الأمـير « سلار » نائـباً للسلطانة والأمـير «بيبرس » استادار له .

ووظيفة « اسـتادار » كانت من أهم الوظائف ، وأهم اعمـال هذه الوظيفة إحضـار ما تحـتاج إليه المطـابخ السلطانية من اللحـوم والتوابل وغـير ذلك ، وكان « بيبـرس » يشغل وظيفة « جـاشنكير » وأهم أعمال هذه الوظـيفة هى تذوق الطعام قبل أن يقدم للسلطان خشية أن يكون قد دس فيه سم .

انتصار الناصر محمد بن قلاوون على المغول

لم يسترح السلطان من متاعب رحلته من « الكرك » ومتاعب الاحتفال بالعودة مرة أخرى إلى العرش حتى وصلته الأخبار بأن المغول تهدد بلاد الشام ، فأمر على الفور بتجهيز الجيش لتأديب المغول ، وأخذ معه الأمير « سلار » والأمير « بيبرس » ووصل إلى دمشق ، ثم سار إلى حمص فوصلته الأخبار بانتصار فرقة من الجيش على العدو ففرح فرحاً عظيماً ، وقام المغول بمناورة لخديعة السلطان . فأشاعوا أنهم قرروا العودة إلى بلادهم بعد أن عرفوا بقوة جيش « الناصر » فانخدع السلطان ومعه الجنود والأمراء بهذه الإشاعة ، فتهاونوا فى واجباتهم العسكرية ، وانتهز المغول ذلك وانقضوا على جند « الناصر » وأنزلوا بهم هزيمة شنعاء .

ورجع الجيش والسلطان إلى القاهرة وما كاد الجيش يعود حتى أخذ السلطان ومعه أمراء المماليك فى الاستعداد للعودة إلى بلاد الشام ، وكتبوا إلى سائر الجهات بالوجه القبلى والوجه البحرى لإرسال كل ما لديهم من أدوات الحرب ، وخيل وجمال ، وجمعوا صناع الأسلحة ، وكلفوهم بالعمل ليلاً ونهاراً لإنتاج كمية كبيرة من الأسلحة وكلف « المحتسب » أن يحصل من الفقهاء على فتوى تجيز أخذ المال من الرعية للنفقة على الجيش ، فأحضر « المحتسب » فتوى قديمة كانت قد صدرت فى حالة مشابهة حين أفتى أحد العلماء فى أيام السلطان« قطز » قاهر المغول بأن يأخذ من كل إنسان ديناراً ،

وطلب من قاضى القضاه « ابن دقيق العيد » أن يوافق على هذه الفتوى القديمة ، ولكن قاضى القضاة رفض وقال : « إن تلك الفتوى لم يصدرها العالم الجليل « ابن عبد السلام » إلا بعد أن أحضر سائر الأمراء ما فى ملكهم من ذهب وفضة وحلى نسائهم ، وحلف كل منهم له أنه لا يملك سوى هذا القدر الذى أحضره ، ولما كان المال غير كاف أفتى بأخذ دينار من كل شخص، أما الآن فأنا أعلم أن كلا من الأمراء له مال جزيل ، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ ومنهم من يرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر » وخرج قاضى القضاة من المجلس ، ولم يجد نائب السلطنة مفراً من أن يصدر أمره إلى والى القاهرة بالنظر فى أموال التجار والأغنياء ، ويأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله .

وبينما كان الاستعداد للحرب قائماً جاء البريد بأن سلطان المغول «غازان» قد رحل عن دمشق ، ثم وصل إلى مصر وفد من المغول ليعرضوا الصلح على مصر ، وكان ضمن الوفد قاضى الموصل وخطيبها ، وبعد أن قرأ السلطان كتاب « غازان » اجتمع مع الأمراء ليشاورهم ، فاتفق الرأى على استدعاء قاضى الموصل . وقالوا له : « أنت من أكابر العلماء ، والنصيحة للدين ، ونحن ما نقاتل إلا لقيام الدين ، فإن كانت الدعوة إلى الصلح من قبيل الحيلة والدهاء . فنحن نحلف لك أن ما ستقوله سيبقى سرا بيننا لا يعلم به أحد سوانا » فحلف القاضى بأنه يعتقد أن « غازان » ورجاله إنما يبغون الصلح حقاً حقنا للدماء ، ولكنه نصح الأمراء بأن يستجيبوا لطلبه ، وأن يظلوا على أهبة الاستعداد .

فقبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الصلح مع غازان ، ولكنه ظل على أهبة الاستعداد لمواجهة خطر المغول .

وصح ما توقعه قلاوون والأمراء ، فقد قدم البريد من حلب بأن «غازان» يسير إلى بلاد الشام ، ووضح أن دعوته للصلح كانت خدعة ، وفى نفس الوقت أخذ أهل دمشق يرحلون عنها . فأصدر السلطان أوامره بتجهيز الجيش والاستعداد للحرب ، وكان الجنود على أهبة الاستعداد للحرب ، ولا تزال الهزيمة السابقة أمام المغول حافراً على القتال والانتصار ، ووقف السلطان فى قلب الجيش ومعه « سلار » و « بيبرس » والكثير من الأمراء والتقى الجيشان بالقرب من دمشق عند « مرج الصفر » وأبلى فيها الجيش والسلطان و « سلار » و « بيبرس » بلاء حسناً وأظهر الجميع شجاعة وفروسية ، وانهزم المغول هزيمة منكرة ، وانتشر خبر الانتصار العظيم ، وخرج السلطان إلى دمشق وسط عدد كبير من الأمراء .

وفى مصر كانت الفرحة الكبرى ، وكانت الزينات تمتد من باب النصر إلى قلعة الجبل ، وتنافس الناس فى إقامة الزينات ، ودخل السلطان إلى باب النصر ، وترجل الأمراء حتى وصل موكب السلطان إلى باب البيمارستان المنصورى « مستشفى قلاوون » فنزل ودخله ، وزار قبر والده .

وقد أقبل الناس على هذا الموكب من كل مكان ووصل « الناصر » إلى قصره فى القلعة ، ورحب به جميع من بالقصر .

القضاء على الأعـراب

تمكن الناصر من القـضـاء على خطر المغول ، لكن كان أمـامه خطر داخلى لا يقل عن خطورة المـغـول ، وهم الأعـراب الذين كـانوا ينتـهـزون فـرصـة اضطراب البلاد وينهبون القرى والمدن ، ويـقتلون ثم يهربون إلى الصحارى ، ثم قطعـوا الطريق على التـجار والناس بأسـيـوط ومنفلوط ، وفرضـوا على الناس ضرائب تحت التـهديد ، وهـجموا على السـجون وأخرجوا المسـاجين ، فأصدر القضـاة والفقهاء فتوى بجواز قتالهم .

فبدأ السلطان التجـهيز لقتال الأعراب ، بدأه بإصـدار قرارات بمنع السفر إلى الصعـيد فى البر والبحر ، ثـم أطلق الأمراء إشاعة أنهم سـوف يسافرون إلى بلاد الشـام لأمر هام ، وذلك إخفاء للخطة الموضـوعة للقضـاء على الأعراب ثم تقرر خروج أربع فـرق . الأولى تتوجه إلى البر الغربى ، والثـانية إلى البر الشرقى والثالثة إلى النيل ، والرابعة تسلك الطريق الذى يسلكه الناس .

ففوجئ الأعراب على حين غرة بالـهـجوم عليهم من كل جانب ، واستطاع المماليك القضـاء عـليهم فى كل مكان هربوا إليـه . سواء الجـبال أو غـيرها ، واسـتـولى الأمراء عـلى أملاك الأعـراب وأمـوالهم وأسلحـتـهم وخـيـولهم وأبقـارهـم .

الانتصار البحرى على الصليبيين

لم يلق السلطان محمد بن قلاوون سيفه . فبعد الانتصار على المغول والأعراب جاءت الأخبار بالبريد أن الصليبيين الذين طردوا من مدينة « عكا» فى أيام السلطان خليل بن قلاوون بدأوا يهددون سواحلنا فى بلاد الشام بعد ما استولوا على جزيرة « أرواد » .

فأصدر السلطان أوامره بناء أربع سفن حربية جديدة يستعان بها على القضاء على الصليبيين ، وامتلأ شاطئ النيل من بولاق إلى الروضة بالناس لمشاهدة المناورات البحرية ، وقد بدأت السفينة الأولى والثانية والثالثة بالمناورة ، وأعجب الناس من حسن استخدام الأسلحة البحرية . ثم ظهرت السفينة الرابعة ، وهى سفينة القائد ، وبينما هى فى عرض النيل إذ بريح تهب فتميل ميلاً شديداً وتغرق ، وينجو الجميع عداً القائد . وبعد ثلاثة أيام ـ أخرجت السفينة الغارقة ، وأصلح ما وقع فيها من عطب ، وخرجت الحملة إلى جزيرة «أرواد » .

واستطاعت الحملة الانتصار على الصليبيين والعودة بالغنائم والأسرى الكثيرة ، وسر السلطان سروراً عظيماً عندما علم بأخبار الانتصار .

زلزال يضرب مصر

وفى غمرة الاحتفالات بالنصر على الصليبيين فى البحر والنصر على المغول فى الشام والنصر على الأعراب فى داخل البلاد .

وفى يوم الثالث عشر من شهر ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة هجرية حدث زلزال عظيم هز الأرض ، وخرج الناس إلى الطرقات رجالاً ونساء وأطفالاً ، وانتهز اللصوص ذلك فاقتحموا المنازل ، وحملوا منها الكثير من الأشياء ، وبات الكثير من الناس فى الخيام التى نصبوها من بولاق إلى الروضة ، وزاد الطين بلة على قيام رياح عاصفة لم تقتصر على القاهرة فقط ولكن الوجه القبلى قد هبت عليه ريح سوداء أظلم بسببها الجو ، وتخربت مدينة « قوص » بالصعيد ، وفى الوجه البحرى سقطت جميع دور مدينة « سخا » ولم يبق من « دمنهور » بيت عامر ، وقد أعقب ذلك حركة بناء واسع ، وأقبل الناس على ترميم ما تشقق من دورهم وأخذوا فى بناء ما تهدم منها ، وقد تنافس أمراء المماليك فى ترميم المساجد التى تخربت مثل جامع عمرو والجامع الأزهر ،وجامع الحاكم بأمر الله .

بيبرس الجاشنكير

استبد سيف الدين سلار نائب السلطان وبيبرس الجاشنكير بالسلطان، وتدخل كل منهما فى أبسط أموره الشخصية من مأكل ومشرب، ولما ضاق صدر السلطان، ونفذ صبره، دبر حيلة للفرار منهما، فأشاع أنه يريد الخروج إلى الحج، وتحدث معهما فى ذلك فوافقا على خروجه، ونزل السلطان من القلعة فى موكب حافل، وخرج الأمراء لوداعه، وعلى رأسهم « بيبرس » و « سلار » وخرج الشعب لوداعه ولكن السلطان بدلاً من ذهابه للحج اتجه للكرك، واستقر بها، وخلع على « أمير الكرك » خلعه جميلة إثباتاً لرضائه عنه، وأمر السلطان بأن يخرج الرجال من القلعة، ويعود كل منهم ومعه ثلاثة أحجار، ثم أمر بإغلاق باب القلعة، وقد فعل السلطان ذلك لأنه يخشى على نفسه أن يتآمر عليه أهل الكرك ويسلمونه إلى « بيبرس » و«سلار ».

ثم جمع الأمراء وأخبرهم أنه لن يذهب إلى الحج، وأنه قرر الإقامة فى قلعة الكرك وترك السلطنة، وأمرهم بالعودة إلى مصر، وطلب منهم أن يبلغوا « سلار » و « بيبرس » والأمراء أنه قد عدل عن الحج وتنازل عن السلطنة، وأقام فى قلعة الكرك. ثم حملهم كتاباً إلى « سلار » و « بيبرس » قال فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : حرس الله تعالى نعمة الجنابيين العاليين، الكبيرين، الغازيين المجاهدين، وفقهما الله تعالى توفيق العارفين. أما بعد فقد طلعت إلى قلعة الكرك، وهى من بعض قلاعى وملكى، وقد عولت على الإقامة فيها، فإن كنتم مماليكى، ومماليك أبى فأطيعوا نائبى « سلار » ولا

تخالفوه فى أمر من الأمور ، ولا تعملوا شـيئاً حتى تشاورونى . فأنا ما أريد لكم إلا الخـير ومـا طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لى ، وأقل كلفـة ، وإن كنتم ما تسمعون منى فأنا متـوكل على الله والسلام » فرد عليه أمراء المماليك بكتاب جاء فيه .

« .. فـخل عنك شغل الصـبى ، وقم واحـضر إلينا ، وإلا بعـد ذلك تطلب الحضـور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفـعك الندم ، ، يكون الجواب حـضورك بنفـسك ومـعك ممالـيكك ، وإلا تعلم أنا مـا نخليـك فى « الكرك » ولو كـثـر شاكروك ، ويخرج الملك من يدك والسلام » .

فكان رد الناصـر هو إرسال رسول من طرفـه ، يحمل مـعه « شـعارات الملك» وبعض الأموال ، وحمله رسالة شفهـية فحواها : « قل لسلار ما أخذت منكم شـيئـاً من بيت المال ، وهذا الذى أخـذته قد سـيـرته إليكم ، انظروا فى حالكم ، فأنا ما بقيت أعمل سلطاناً ، وأنتم على هذه الصورة ، فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » .

فاجـتمع الأمـراد ، واستقـر الرأى على أن يعهـد بالملك للأميـر « سلار » ولكنه اعـتذر ، ورشح « بيبـرس » بدلا منه فوافـق الأمراء عليه وبايـعوه ثم اختار بيبرُس الأمير « سلار » نائباً للسلطنة ، وتلقب بيبرس الجاشنكير بلقب المظفـر ، وركب بالخلعة السـوداء والعمـامة المدورة ، وهكذا انتـهت سلطنة « الناصر » الثانية بعد أن حكم عشر سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً .

ولما تم الأمر لـبيبـرس بادر بكتابة تقلـيد بمنح الكرك للناصـر محـمد بن قلاوون ، ولكن بعض الأمـراء رفض الاعتراف بسلـطنة بيبرس الجـاشنكير ، وأصروا على ولائهم للـناصـر محمـد بن قـلاوون ، ومنهـم نائـب دمشـق «الأفرم » وقـال : « بئس والله ما فـعله الملك الناصر بنفـسه ، وبئس مـا فعله

«بيبرس » وأنا لا أحلف لبيبرس ، وقد حلفت للملك الناصر ـ حتى أبعث إلى « الناصر » وانضم للأفرم نائب حماه ونائب حلب ، وكتب بعض أمراء الشام خطابات إلى الناصر محمد بن قلاوون يستنكرون منه تنازله عن العرش ، ويعاهدونه على العمل لعودته إلى العرش ، فرد عليهم بكتاب يعرب فيه عن شكره لهم على ولائهم له ، ويطلب منهم الصبر على الأمور وحسن التدبير ، وطلب منهم أن يعرفوه بمجريات الأمور أولاً بأول .

ولم يكن أمراء الشام فقط هم الذين وقفوا إلى جانب محمد بن قلاوون ، فقد كان بعض الأمراء فى مصر يكاتبون الناصر فى مدة إقامته بالكرك ، ويرغبون فى عودته إلى العرش ، وبعض منهم وصل بالفعل إلى الكرك .

وأحس بيبرس بالخطر ، فطلب من « الناصر » أن يرسل إليه ما لديه من المماليك والخيل ، ويهدده بالنفى .

وعلى أثر ذلك حدث أول صدام بين بيبرس والناصر الذى بدأ يعد العدة لاسترداد ملكه ، ثم كتب إلى أمراء الشام يطلب المعاونة على استرداد ملكه .

وأرسل لهم كتاباً قال فيه : « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت من مصر ، وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن ، وأضيق الأماكن ، ليستريح خاطرى من الفكر ، فما تراجعوا عنى ، وأرسل المظفر بيبرس يهددنى بالنفى إلى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال . فإما أن تكفوا عنى أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون على ، وإما إنى أتوجه إلى بعض بلاد التتار ، ألتجئ إليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفر إلى الكفار» .

ووصلت أنباء استعداد الناصر إلى أهل مصر ، فأخذوا يترقبون عودته واستردداه عرشه .

وعاود بيبرس الكتابة إلى الناصر يطلب منه إعادة الأمراء ، وقال له : «وإن لم تسيرهم ، سرت إليك ، وأخذتك معهم وأنفك راغم » ثم زاد كره الناس لبيبرس بعد انخفاض النيل ، وارتفاع سعر القمح وانتشار الأمراض ولكن بيبرس حاول أن يثبت أقدامه على العرش ، فلجأ إلى الخليفة العباسى لتجديد البيعة لبيبرس مرة أخرى ، وحضر القضاة والفقهاء وجددوا البيعة، وأكدوا أنهم باقون على طاعة المظفر بيبرس .

فى نفس الوقت كان الأمراء فى الشام يلتفون حول السلطان الشرعى للبلاد ، ويتعاونون معه أشد التعاون ، ومن هؤلاء الأمراء نائب حلب ، ونائب حماه ونائب صفد ، ثم اتجه السلطان الناصر إلى دمشق .

واضطربت أحوال البلاد بعد أن ضاق الناس بالمظفر بيبرس ، واشتد تطلعهم إلى رجوع السلطان الشرعى ، ورأى « سلار » أن يرسل « بيبرس » إلى السلطان الناصر يعلن له تنازله عن العرش ، ويرجوه الصفح عنه ، وعلى أثر ذلك أعلن « بيبرس » خلع نفسه من السلطنة ، واسقاط اسمه من خطبة الجمعة والعيدين ، وإعادة الخطبة للناصر .

عودة الناصر إلى العرش

بعد أن تنازل « بيبرس » عن العرش عاد الناصـر إلى عرشه للمرة الثالثة وكان عـمره خـمسـة وعشرون عـاماً بعـد أن أصبح ذا خـبرة من التـجارب السابقة .

وتعد هذه السلطنة الثالثـة ، حيث إن السلطنة الأولى لم يستقر فـيها على العرش أكـثر من سنة انتقل بعدها إلى قـلعة الكرك شبه منفى ، ثم اسـتدعى بعد مقتل لاجين ليتولى العـرش للمرة الثانية ، مدة تزيد عن العشر سنوات ، ثم يخـرج إلى الكرك مرة أخـرى بإرادته ، حتى تزلزلت الأرض تحت قـدمى بيبـرس الجاشنكير ، بـعدها يخرج السلطان الناصـر إلى دمشق حـيث تلقاه الناس بالترحاب ومعـهم الأمراء الذين وقفوا معه أمام بيبرس . لـيسير بعدها إلى القاهرة حـيث تلقاه الشعب بالفرح والسـرور ، وأقيم احتفـال عظيم بهذه المناسبـة وبدىء بـقـراءة القرآن ، وأخذ المقرىء يتلوا قـول الله تبارك وتعالى **﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾**(١) وبدأ الشعراء فى إنشاد قصائدهم تعبيراً عن الفرحة بعودة السلطان .

ومع انتهاء الاحـتفالات بعودة السلطان إلى البـلاد وجلوسه على العرش لمدة ثالثـة أخذ يعمل علـى تثبيت قـواعد ملكه ، وبدأ يعـمل على القضـاء على المتآمرين الطامعين فى ملكه .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

وأول من نظر فى أمره من المتآمرين هو « بيبرس » فاصدر أمراً بالقبض عليه ، وجئ مقيداً بالحديد إلى السلطان الذى أخذ فى تأنيبه ، وبيبرس يستعطفه لكن السلطان أمر بقتله ، فقتل سنة ٧٠٩هـ .

أما « سلا ر» فإنه خاف سوء العاقبة ، وطلب من الناصر نيابة كرك الشوبك فولاه إياها ، ثم استدعاه فتردد سلار فى الحضور . لكن لم يطل تردده ، بعد ما رأى أن لا مفر من تلبية دعوة السلطان ، لكن عندما وصل إلى القاهرة قبض عليه ، وأصدر السلطان أمره أن يرد جميع الأموال التى اغتصبها فرد خمسين حملاً من الذهب والفضة والجواهر والدنانير والأقمشة. ثم أمر الناصر منع الطعام عنه حتى مات سنة ٧١٠هـ فدفن بالكبش ، وإلى سلار تنسب الملابس والمناديل السلارية .

وعلم السلطان بوجود مؤامرة على عرشه ، وكان وراءها بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بالاشتراك مع بعض الأمراء الذين اتفقوا على أن يتولى « موسى بن على بن قلاوون » عرش البلاد بدلاً من عمه الناصر . لكن المؤامرة انكشفت فأرسل الناصر يستدعى ابن أخيه الأمير موسى بن على بن قلاوون، ولكنه هرب خوفاً من عمه إلى أن تم القبض عليه فأصدر الناصر أوامره بقتل كل من اشترك فى هذه المؤامرة وتجاهل أن « بكتمر » هو الرأس المدبر ، لهذه المؤامرة وضج الناس بالشكوى والتوسل إلى الناصر يطلبون عفوه عن المتآمرين وأمام بكاء الناس وإلحاحهم رق قلب الناصر ، وعفا عنهم فزاد ذلك الصنيع فى حب الشعب له .

لكن سرعان ما غدر الناصر بـ «بكتمر » وقتله .

ولم تنته المؤامرات بقتل « بكتمر » فقد أحس بأن « قراسنقر » نائب دمشق لا يكن له الود ، فتغير قلبه عليه ، وأحس قراسنقر بكراهية السلطان له

فكتب إلى « الأفـرم » نائب طرابلس يخبـره بعزم السلطن التـخلص منهـما ، وزين له الالتـجاء إلى المغـول ، ثم أرسـلا إلى سلطان رسولا يبين له أن مـا حملهمـا على دخول أرض العدو هو الخوف من السلـطان ، وقد رحب المغول بالأميرين واستقبلوهما بالحفاوة والترحاب ، و كانت فراسة السلطان صادقة فى قراسنقر . لأنه بعـد التجائه للمغـول أغراهم بغزو بلاد الشام فاسـتجاب المغول لإغـراء « قراسنقـر » وصديقه ، وأمـام هذا التحـريض سافـر الناصر بنفسه إلى بلاد الشام ، وعندما علم المغـول بقدومه عادوا من حيث أتوا ولكن « قراسنـقر » أرسل من يحـاول اغتيـال « الناصر » فلم تفلـح المؤامرة ، وتم القبض على اثنين من المتآمرين ، أمر السلطان بإعدامهما .

وعـزم الناصر سنة ٧٣٣هـــ على الحج ، ولكنه نما إلى علمـه أن الأميـر «بكتمـر السـاقى » يتـآمر على قـتله ومعه عـدد من الأمراء ، وحـاول الناصر كشف أمـر بكتمر ، فـادعى المرض وهو فى طريقه للحـج ، وطلب العودة إلى مصر فوافق الأمراء على عـودته إلا « بكتمر السـاقى » الذى أصر على أن يتم السلطان رحلة الحج ، وأن عودته دون إتمامه أمر غير مـقبول . فأخذ الناصر برأى « بكتمر السـاقى بعد ما تأكدت شكوكه فـيه ، وظل على حذر منه وفى أثناء الرحلة فر من مماليكه نـحو ثلاثين مملوكاً اتجهـوا إلى العراق ، فلم يذع السلطان خبـر فرار المماليـك . وبعد أن أدى مناسك الحج، وزار قبـر الرسول ﷺ حضـر أميـر المدينة ، وقـدم إلى السلطان المماليك الذيـن فروا ، فـأصدر السلطان أمره بإرسـال هؤلاء المـماليك مقبوضـاً عليهم إلى الكرك ، وحدث أن أصيب بكتـمر السـاقى » وولده بمرض تسـبب فى موتهمـا . مات الابن أولاً ، ولحق به الأب ، والغالب أن الناصر دس لهما السم .

وحامت الشـبهات حـول تآمر الأميـر « تنكز » نائب الشام للقـضاء على السلطان ، وكان الناصر قد ولاه نيابة الشام بعد عودته الثالثة إلى الحكم ، إذ

كان مـوضـع ثقتـه ولذلك طلب الناصر مـن نواب حلب ، وحمـاه ، وحمص ، وطرابلس ، وصفد ألا يكاتبه أحـد منهم مبـاشـرة ، ولكـن يكاتبـون الأمـيـر « تنكز » الذى يقوم بدوره بمكاتبة السلطان فى أمرهـم .

ولكن سرعان ما تغيـر الحال بين السلطان على « تنكز » وبدأ الشك فيه ، وانكر «تنكز » بشدة أنه يتآمر على السلطان ، أو أن هناك مـتآمرين معه على العـرش، ولكن السلطان أصـدر أمراً بنفـيه إلى الاسـكندرية ، وانتهى الأمـر بإعدامه وإعدام أصدقائه .

والواقع أن الناصـر كان رقـيق الإحساس يحـب العفو ، وقـد وضـح ذلك عندما عفـا عن الأمراء وابن أخيه ، ويبـدو أن هذه كانت سمة مـالوفة على ما يبدو فى عصر المماليك ، ولكن لأن المـماليك كانوا يحسون أن الخطر يمكن أن يداهمـهم من أى مكان لذلك سـيطرت علـيهم فـكرة إبعـاد الخطر عنهم وعن ملكهم بأى ثمن ، وهذا هو ما فعله الناصـر محمد بن قلاوون .

الناصر والمماليك

كان قلاوون والد الناصر محمد بن قلاوون قد عنى بالمماليك عناية خاصة إذ كان يحرص على تفقد طعامهم بنفسه ويتذوقه ، وكان يهتم بأمر تثقيفهم وتربيتهم لذا تنافس تجار الرقيق فى إحضار أحسن المماليك إليه .

أما ابنه الناصر فقد حرص على أن ينعم على المماليك بالملابس الفاخرة والخيول والعطايا ، فى نفس الوقت توجيههم ورعايتهم ، فقد كان يسأل عن من يمرض منهم ويشرف على علاجه ، ويمرضه بنفسه مثما ما حدث بالنسبة لمملوكه « الطنبغا الماردانى » وهذه الرأفة كانت ممزوجة بالحزم والصرامة . فإذا علم بفساد أحدهم ، أو ارتكابه محرماً من سكراً وغيره أنزل به العقوبة المناسبة لجرمه ، فقد يضربه ، أو يفصله إن لم ينفذ الأوامر ، وقد تصل العقوبة للتهديد بالقتل عند ارتكاب خطأ أو فاحشة ، وربما نفذ التهديد ، وقد حدث أن تجمهر بعض المماليك عند باب القصر بسبب تأخير رواتبهم فى سنة ٧٢١هـ فأرسل إليهم الناصر أحد الأمراء ليتفاهم معهم حتى لا تكون ثورة ، ولكن الأمير فشل فى ذلك .

فخرج السلطان بنفسه إلى المماليك ، وفى يده عصا صغيرة ، وتقدم منهم فى ثبات وحزم ، وأهانهم وضرب بعضهم بالعصا الصغيرة ، ثم صاح فيهم « اذهبوا إلى أماكنكم » فلم يملك المماليك إلا السمع والطاعة . وهذا دليل ملموس على شجاعة السلطان وهيبته وتمكنه وثقته بنفسه ، لكنه لم يترك الحادثة تمر سدى ، وإنما أمر بالتحقيق فى أسباب تأخر رواتب المماليك ، وعاقب بعضهم بتخفيض مرتباتهم ، كما أمر بتفريقهم ، وبعث بعدد منهم إلى بلاد الشام ، وفرق الباقى بين أمراء المماليك فى مصر . لكنه فى نفس الوقت

عنى بتنشئة جـيل جديد طبعه بخلقه وإرادته، هذا الجيل هم صـغار المماليك الذى جلس لتوزيع الإقطاعات عيهم وعلى الأمراء ، وكان حريصاً على تحقيق العدالة فى توزيع الإقطاعات .

وعندما رأى السلطان أحد المماليك وفى وجهه جرح يشبـه ضربة سيف أعجب به السلطان ، وأمر له بإقطاع جيد وسـأله عن الحرب التى أصيب فيها بهـذا الجرح فـقال لـه المملوك : إنه ليس فى حـرب . إنما وقع من سلم ، فلم يمنع عنه إقطاعه الجيد ، وتركه السلطان ينصـرف به . فقال أحد الأمراء « ما بقى يصح له هذا الإقطاع » فـالتفت إليه الناصـر ، وقال « قد صـدقنى ، قال الحق ، وقد أخذ رزقه » .

الناصر والتعمير

امتدت سلطنة الناصر الثالثة إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين عاماً أنجز فيها كثيراً من العمارة والمنشآت ، وقد ساعده على ذلك ولعه بالصيد إذ كان يتنقل فى البلاد ، فأتيح له أن يقف بنفسه على أحوالها ، ومعرفة ما تحتاجه من أوجه العمارة ، فبدأ بتعمير العاصمة أولاً ، ثم اتجه إلى تعمير الريف وشق الترع وأقام الجسور . مما أدى إلى كثرة الغلات والخيرات ، وسهل الانتقال من مكان إلى آخر ، ومن أهم منشآته الميدان العظيم . الذى أنشأه تحت القلعة بعد سلطنته الثالثة ، وحفر فيه الآبار ، وغرس فيه الأشجار ، وأحاطه بسور عظيم من الحجر وبنى خارج السور حوضاً جعله سبيلاً لمن مر من أبناء السبيل .

وقصر الأبلق يعد من أهم منشآت الناصر ، وقد أنشأه فوق الميدان العظيم ، وحرص الناصر على جعل القصر من أجمل الأبنية ، واستدعى له من دمشق البنائين ، واستخدم فى بنائه نوعين مختلفين من الحجر . أسود وأصفر ، ولذلك جاءت تسميته بالقصر الأبلق ، ومن أبواب القصر امتدت دهالين إلى الداخل من الرخام ، وقد ازدانت جدرانه بالرخام والصدف وذهبت السقوف ، وجعلت على النوافذ شبابيك من حديد ، وأرضية القصر جعلت كلها من الرخام ، وكان السلطان يستقبل الوفود بالقصر فى كل الأيام ، ماعدا يومى الاثنين والخميس . ففيهما يجلس فى الإيوان ، وهذا الإيوان أنشأه والده السلطان قلاوون ، ولكن الناصر رأى أن يجدده ، ويزيد فيه . فأنشأ به قبة جميلة ، وجعل فى صدره سرير الملك ، المصنوع من العاج والأبنوس ، وجعل به أفخر الأثاث والستائر . بحيث يبهر النظار الزائرين .

وإلى جانب القصر والإيوان أنشأ المسجد ، وجعل أرضه من الرخام وزين سقفه بالألوان المذهبة ، وله مئذنتان من أروع المآذن فى مصر ، وأقام به مقصورة تحيط بالأروقة .

وكانت مطابخ القصر تحتاج كميات كبيرة من اللحوم والألبان ومنتجاتها لذا أنشأ حوشاً للغنم تتم العناية فيه بترتبية الأغنام والأبقار والأوز .

وقد أنجز ذلك الحوش فى ستة وثلاثين يوماً ، ووضعت به الأغنام والأبقار . كما بنيت بيوت للأوز .

وقد وجه عناية خاصة بالعمارة اللازمة للحريم ، ومن بين هذه العمارة القاعات السبع التى بناها من أجل جواريه داخل القلعة ، والقاعات السبع التى أنشأها خارج القلعة قرب مسجد ابن طولون ، وقد خصصها لبناته .

واهتم كثيراً بتوفير المياه للقلعة ، لذا أمر بحفر عشر آبار يصل عمقها إلى نحو أربعين ذراعاً ، حتى تزيد كمية المياه داخل القلعة ، ولم يقتصر تعميره على القلعة ، وإنما امتدت عمارته خارجها ، ومن أهم تلك العمارة الميدان الكبير الواقع على النيل « جاردن سيتى » والذى خصص لسباق الخيل .

وكان الظاهر بيبرس قد أنشأ قناطر السباع فوق الخليج بين مصر والقاهرة ، وجعل عليها سباعاً حجرية ، فأمر الناصر بهدمها وعمارتها أوسع مما كانت عليه ، وأقصر من ارتفاعها الأول ، ولكنه لم يضع سباع الحجر عليها . فأخذ الناس يتحدثون عن أن السلطان أراد هدمها وإزالتها لكى يمحو السباع من عليها حتى تنسب إليه ، ولا تنسب إلى الظاهر بيبرس ، ولم تكد تصل إلى أسماعه تلك المقولة حتى أمر فى الحال بإعادة السباع الحجرية إلى ما كانت عليه ، ثم أنشأ « ميدان المهارى » ليجمع فيه جميع خيوله . لذا خصص له سجلاً تسجل بيانات كل فرس من حيث سنه ونسبه وأصالته

ومـهـاراته فى الكر والفـر ، وكـان السلطان دائم التـردد على ذلك الميـدان ، ومتابعة أحوال الخيول فيه بنفسه .

وعند باب اللوق أنشـأ بسـتاناً عظيـماً ، وأحـضـر له المطعمـون من بلاد الشام. الذين يعرفـون تطعيم الأشجار ، وقد تعلم منـهم المصريون فن تطعيم الأشجار من وقت إنشاء هذا البستان .

وكانت الفـيضانات العاليـة تهدد مصر ، وتعـد خطراً غير مأمـون ، وقد نجح السلطان فى وقف خطر الفـيضـان عندما أنشـأ جسـراً وسط النيل من جزيرة الروضـة إلى الجزيرة الوسطى يكون بمثـابة سد ، وأنشأ خليـجاً فى الجزيرة الوسطى ، وكان ينزل إلى مكان العمل بنفسه .

وبعـد أن اطمأن الناصـر على عمـارة العاصـمة اتجـه إلى الريف ، وبدا عمارته بإصدار أوامره بحفر خليج من القاهرة إلى مدينة سرياقوس ، وقسم العمل فيه بين أمـراء المماليك ، وعين لكل أمير مساحة يحـفرها ، وأقيمت على هذا الخليـج الكثـيـر من القنـاطر ، وقـد أدى إنشـاء هذا الخليـج « الخليج الناصـرى » إلى تعـميـر جـهات مـختلفـة ، حيث قـامت على جـانبيـه الدور والقصور والأسـواق والبساتين ، وامتـد العمار إلى أحيـاء أخرى من المدينة ، وسارت المراكب بين القـاهرة وسرياقوس تحـمل من الريف إلى المدينة ، ومن المدينة إلى الريف الخير الوفير .

وأتبع ذلك بامتـداد التعمـير شرقـاً تجاه الشرقيـة وغرباً تجاه الجـيزة . فأقام الجسور والقناصر وحفـر الترع ، وساهم فى العمل الأمراء ورجالهم ، وتحولت الأرض البور إلى أرض زراعية .

أما أهـم الأعمـال فهـو إعادة حفـر وتطهـير خليج الإسكندرية الذى لـفه الإهمال ، وقد لاحظ الناصر أثناء تفقده للإسكندرية عدم جريان الماء فيه ، مما

تسبب فى تبوير الأرض الزراعية نتيجـة حرمانها من الماء ، إلى جانب حرمان الناس من الماء العذب . فـاستدعى الناصر نائب الإسكندرية ، وسـأله ، فوجد لديه رغـبة ملحـة فى تطهيـره ، وانبرى يعـدد للسلطان فـوائد ذلك التطهيـر واستمرار جريان الماء طول العام .

فوافق الناصر ، وأصدر أوامـره بتطهيره وتعميقـه وتوسيعه ، وطلب أن يكون عمقه نحو ست قصبات (واحد وعـشرون متراً تقريباً) وعرضه ثمانى قصـبات « ثمانية وعـشرون متـراً تقريباً » وقد قـسم العمل فيـه بين الأمراء والولاة ، وقد عمل فيه ما يقرب من أربعين ألف رجل .

وترتب علـى ذلك إعـادة الحـيـاة إلـى الأرض والناس ، وزادت الأراضـى الزراعـيـة على مائـة ألف فدان ، ولا يزال هذا الخـليج موجـوداً حـتى الآن ، ويعرف « بـترعة المحـمودية » وقـد تابع الناصر العـمل فيـه بنفسـه ، وكان يستـحث الأمراء على الانتـهاء من إنجـازه فى أسرع وقت ، لذلك كـان العمل يستمر ليل نهار من غير راحـة ، وقد تسبب الإرهاق فى موت كثير من الناس تحت تأثير قـسوة العمل ، خاصـة وإن كثيراً من الناس كـانوا يعملون بنظام السخرة ، ويؤخذون من المساجد والأسواق والطرقات قسراً .

وقد تسبب توسيع الخليج إلى نزع مـلكية بعض الأراضـى من الجانبين ، وأيضاً كانت هناك مشكلة نزع الملكيـة لاتمام المشروعات ، لذا لجأ الناصر إلى تعـويض الناس عـما ينزع من أمـلاكـهم ، وقرر أن يصـرف ثمن المـتلكات لأصحابها ، ويعوض من أخذت داره .

الناصر والاقتصاد

كان الناصر طرازاً فريداً فى سلاطين المماليك . جعل هدفه النهوض بالبلاد بالتقدم الاقتصادى ، وتنمية موارد الثروة ، فاهتم بالزراعة والصناعة والتجارة داخل وخارج البلاد .

وقد نالت الزراعة من اهتمام الناصر وعنايته الكثير . حيث شق القنوات فى البلاد ، وحفر الخلجان بها ، فكثرت الحاصلات الزاعية ، ووجه عناية خاصة للثروة الحيوانية ، ومن بينها إنشاء « حوش الغنم » .

وحظيت الصناعة باهتمام الناصر ورعايته ، وقد كثرت فى عهده المنتجات الصناعية من أقمشة ونحاس وزجاج وخزف وخشب ، وقد عمل على تطور صناعة السكر وتقدمها بسبب الكميات الكبيرة التى كانت تستخدم فى الحفلات ، وازدهرت صناعة النسيج بسبب اهتمام الدولة بها ، وإنشاء المصانع لها فى الإسكندرية .

أما التجارة فقد انتعشت وراجت بسبب يقظة الدولة ومحاسبتها للتجار فقد كان المحتسب يطوف الأسواق ومعه نوابه ، ويعاقب من يحاول الغش فى السلع، أو فى الكيل ، وقد ظهرت اسواق مختلفة متخصصة . لكل سلعة سوق خاص بها مثل سوق الفحامين وسوق الخيمية وسوق العطارين .

وتحولت الثغور إلى مراكز تجارية هامة ، وأصبحت الإسكندرية ودمياط وعيذاب ورشيد وقوص من أهم البلاد التى راجت فيها التجارة بحكم مواقعها ، وأصبحت تلك الثغور من أهم مراكز التجارة الخارجية . حيث كانت

المنتجات تأتى من الشرق من الصين والهند واليمن عن طريق البحر الأحمر إلى مدينة عيذاب ، ثم تفرغ المراكب البضائع ، ثم تحمل على ظهور الإبل إلى قوص ، ومن قوص تنقل بواسطة النيل إلى القاهرة ، ثم تواصل سيرها إلى رشيد وخليج الإسكندرية حتى مينائها ثم تصدر إلى أوربا .

وكانت تجارة أوربا تأتى عن طريق الإسكندرية أو دمياط أو رشيد ، ثم إلى النيل ، ثم إلى قوص ثم إلى عيذاب على البحر الأحمر . فتحملها السفن إلى موانىء اليمن والهند والصين ، ونتيجة لهذا النشاط التجارى دعت الحاجة إلى تعيين قناصل لبعض البلاد بالموانى الهامة المصرية ، وكان القناصل مسئولين عن مواطنيهم من التجار أمام السلطان .

وحاول بابا الفاتيكان أن يمنع تجار أوربا من التعامل مع مصر بعد ما تمكن السلطان الأشرف خليل من الاستيلاء على عكا وطرد الصليبيين من أخر حصن لهم فى الشام ، ولكن التجار الأوربيين رأوا أن مصلحتهم المالية أقوى من تعصب البابا ، فقرروا التعامل مع مصر . والواقع أن سياسة تحريم الاتجار مع مصر لم تلق قبولاً من التجار الأوربيين ، وفشل البابا فى مخططه.

وجنوباً اتجهت مصر إلى تنمية علاقاتها التجارية مع الدول الأفريقية مثل السودان ومالى وسارت القوافل . سواء على ظهور الإبل ، أو على سطح النيل حاملة منتجات مصر إلى الجنوب ، وعائدة بمنتجات الدول الأفريقية شمالاً .

الناصر وتحقيق العدالة

لم ينس الناصر حفاوة الشعب به ، ومؤازرته فى محنته، وابتهاجه بعودته إلى العرش ، وقرر أن ينصفه ويحميه من العسف . لذا فلم تكد تستقر الأمور ، ويثبت أقدامه فى الملك حتى أمر بأن يجدد الجلوس بدار العدل أسبوعياً كل يوم اثنين ، وأمر بأن يبلغ الناس بذلك القرار ، وأن يتقدموا بشكاواهم إليه مباشرة . وسوف يفصل فيها بنفسه ، ولم تكد تصدر هذه القرارات حتى خاف الأمراء ، وأدوا حقوق الناس ، وجلس السلطان يسمع شكايات الناس ، وحكم بينهم وأنصف المظلومين .

ولم يكن رفع الظلم كافياً فى رد جميل الشعب ، وإنما لابد من توفير الرخاء له ، وتخفيف أعباء المعيشة عن كاهله ، لذا قام الناصر بإلغاء بعض الضرائب ، وخفف بعضها ، كما أصدر أمراً بتنازل الحكومة من متأخراتها من الضرائب فى ذمة الناس حتى عام ٧١٤هـ .

واتجه إلى تخفيف المكوس فألغى مكس الملح ، ومكس ساحل الغله ، وأبطل ما كان يجبى من زارعى القصب ، وأعفى أصحاب السفن مما كانوا يدفعونه من مكوس ، وأعفى التجار مما كانوا يدفعونه للمشرفين على الأسواق ، وألغى ما كان يجبى من المسافرين على السفن ، وألغى ما كان يحصل من الذين يعملون فى تنظيف المجارى .

وليأمن الناس على أنفسهم وأرزاقهم عمل على تخليصهم ممن يعيثون فى الأرض الفساد . فعمل على التخلص من الأعراب وتأديبهم بعد أن عادوا إلى نهب الناس وحرموهم الطمأنينة ، وقد خدعهم وأخذهم على غرة ، عندما

أشاع أنه خارج إلى الصعيد للصيد ، ثم انقض عليهم ، وقتل عدداً كبيراً منهم وأسر عدد أكبر .

ولم تتوقف حماية الشعب من الأذى عند القضاء على الأعراب ، وإنما أصر الناصر على حمايته من أى أذى حتى لو كان من مماليكه فقد حرص على عدم استبداد المماليك بالشعب ، وإذا علم أن أحداً استبد أو استغل وظيفته فإنه يسرع إلى وقف هذا الاستبداد . فمثلاً عندما علم السلطان أن أحد الأمراء يرتشى سارع إلى إعفائه من منصبه ، لأن الناصر كان يكره المرتشين ، ويعتقد أنهم أساس الفساد .

وعندما علم بسوء سلوك بعض الأمراء من المماليك على أثر سكرهم أمر بعدم نزولهم من القلعة إلى القاهرة إلا بعد الرجوع إليه .

وامتدت حمايته للشعب ورعايته إلى إبعاد كل مصادر الخطر عنه ، ولو كان ذلك الخطر مرضاً معدياً ، لذا رأى أن يخصص لمرضى الجذام والبرص مصحة خاصة بهم فى إقليم الفيوم ، بعد أن كانوا يعيشون فى القاهرة وسط سكانها ، وينقلون العدوى إليهم .

الناصر وكريم الدين

لمع فى عصر الناصر « كريم الدين » ، وقد بدأ « كريم الدين » حياته كاتباً عند الأمير « بيبرس الجاشنكير » وكان مسيحياً ثم أسلم ، وكان هذا أمراً مألوفاً بين الناس ، حتى يتمكنوا من فرصة الترقى فى وظائف الدولة . وعندما أمر الناصر بقتل السلطان « بيبرس الجاشنكير » وأصدر أمراً بتعيين « كريم الدين » ناظراً للخاصة ، وهى وظيفة يشرف فيها على أملاك السلطان وأمواله . وكان « كريم الدين » كريماً محبوباً من الناس . يحب الخير لهم تجلى ذلك عندما مرض وأخذ المماليك يحضرون إليه لعيادته فيغدق عليهم ، وعندما شفى تصدق بمال كثير ، وأقام مأدبة فاخرة بها مائة خروف مشوى ، وخلع على الأطباء خلعاً سنية ، وكان موضع ثقة السلطان لدرجة أنه ائتمنه على عرضه ، وأدخله على حريمه ، وسبب سماح السلطان بدخوله على حريمه أنه عندما كان يتلقى أوامر زوجة من زوجات السلطان عن طريق إحدى وصيفاتها ، وتظل الوصيفة تروح وتجئ مرات عدة حاملة أوامر الزوجة ورد كريم الدين .. فقال له السلطان : يا قاضى ما الداعى لهذا التطويل ؟ زوجتى بمثابة ابنتك ، لا يحول بينك وبينها حجاب ، أدخل إليها ، وأبصر ما تريده وافعله لها .

وأمرت الزوجة بإعداد الطعام ، وقام السلطان بنفسه إلى تقديم العنب لكريم الدين وقال : « كل من عنب دارنا » .

وعندما وصلت منزلة « كريم الدين » إلى هذه الدرجة الرفيعة عند

السلطان ، وعلت مكـانته فى نفـوس الناس كلهم ، بدأ الحـقـد يدب فى قلوب الأمراء ، فبدأوا بالوشاية والوقيـعة بين السلطان وكريم ، وأخذوا يحيكون له المؤامـرات ، ويلفقـون له التهم ، فـاتهمـه بعض الأمراء بأنه ينفق مـن أموال السلطان ، ويقوم بتفريقها على الناس حتى يقال عنه إنه كريم .

ومازالوا يوغـرون صدر الناصـر عليه حـتى صدق الوشـاية ، وأمره أن يلزم بيته ، وعندما علم الناس توافدوا عليه يزورونه ، ولكن الناصر أمر بنقله إلى القدس ، ثم عـاد إلى القاهرة ، فـأصدر أمراً بتـعيينـه فى أسوان ، ولكنه وجد مشنوقاً ، وأغلب الظن أنه مات مقتولاً لا منتحراً .

الناصر وشرف الدين

هو شـرف الدين عـبـد الوهاب بن فـضل الله المعـروف بالنشـو ، وكـان نصرانيـاً تظاهر باعتناق الإسلام ، وتقلد بعض الوظائف ثم عـينه الناصر فى وظيفة ناظر الخاصة سنة ٧٣٢هـ ولما خـرج للحج أمر أن يصحبه فى الرحلة المقدسـة ، لكن النشو لم يكن مخلصـاً فلم يكد يتولى نظر الخـاصة ، ويحظى بعطف السلطان ، وينـال منزلة سامـيـة فى الدولة ، حتى ارتـكب الكثيـر من المظالم ، وأكـثر من مـصادرات الكتـاب والتجـار والأغنياء حـتى ضج الناس بالشكوى منه ، وتقـدم بعض الأمـراء للسلطان يطلبـون عـزله من منصبـه . علاوة على الكتب التى وصلت للسلطان من عامـة الشعب تجأر بالشكوى من تعسفه وظلمه .

وكـان النشـو غـاية فى اللؤم والخـداع ، لذا حـرص على الظهـور أمـام السلطان بمظهـر الفـقيـر المعدم حـتى يزداد السلطان ثقـة فـيه ، ولكن أمـام الشكوى الصارخة منه لم يجد السلطان بدأ من القـبض عليه ومصادرة أمواله التى أحـصـيت فكانـت ١١٥ ألف دينار و ١٥٠ حـبـة لؤلؤ و ٧٠ فـصـاً من الأحجار الكريمة ، وقطعة من الزمـرد زنتها رطل ، و٦٠ حبلاً من لؤلؤ و١٧٠ خـاتماً من الذهب والفـضـة و ٤٠٠ بذلة قـماش جـديدة و ٨٠ بذلة قـمـاش مستعمل وغير ذلك من الأشياء القيمة .

فقتل النشــو « شرف الدين » بعد أن كفن بكفن لم يـتجاوز قيمـته أربعة دراهم .

وفرح الناس على أثر القبض على شرف الدين ، ونادى المنادى « أن بيعوا واشتروا ، واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » .

الناصر وحياته الخاصة

نال الناصر أعلى تربية فى ظل والده السلطان قلاوون ، لذا كان حسن الخلق . لطيف الطبع . ومن أهم صفاته الشخصية أنه كان عف اللسان لا يفحش بالقول . سواء كان غاضباً أم منبسط الوجه ، رحب الصدر . لا يميل إلى الهزل فى موضع الجد ، شديد الغضب فى الحق .

لا يميل إلى الزخرف فى لباسه . إذ ترك ما كان يتحلى به سلاطين المماليك من الملابس الغالية الثمن ، وكان يعنى بذاته ، ويتجمل من غير إسراف ، وقد حدث ذات يوم أن نزل به مرض ألزمه الفراش أياماً . فلما عوفى منه دخل الحمام وهناك رأى أن يحلق رأسه كله ، ولما رآه الأمراء بادروا إلى تقليده فحلقوا رءوسهم ، ومنذ ذلك الوقت أبطلت عادة إرخاء ذوائب الشعر التى كانت مألوفة لدى المماليك .

وكان الناصر متديناً ، وقد حرص بعد أربع سنوات من سلطنته الثالثة على الخروج إلى الحج ، وبعد أدائه لمناسك الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ عاد إلى قلعة الجبل بالقاهرة ، وبعد ذلك بست سنوات خرج مرة أخرى لزيارة البلاد المقدسة ، وأداء فريضة الحج بعد ما أصدر أوامره بإعداد كسوة الكعبة من الحرير ، وأخذ ناظر الخاصة « كريم الدين » الاستعداد للسفر إلى الحجاز ، فأمر بعمل قدور من ذهب وفضة ونحاس ، لكى تحمل ويطبخ فيها طعام السلطان ، وأحضر الجنايـنية لعمل ورود ورياحين فى أحواض من خشب تحمل على الجمال وتسقى بالماء ، وأعد فى البحر الأحمر مركبين إلى ينبع ، ومركبين إلى جدة .

وعندما وصل إلى مكة تزلف بعض المنافقين إليه من القضاة المرافقين له، وزين له أن يطوف بالكعبة راكباً كما فعل النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فالتفت الناصر إليه وقال فى خشوع : « ومن أناحتى أتشبه بالنبى صلوات الله وسلامه عليه ، والله لا أطوف إلا كما يطوف الناس » وأمر الحراس المحيطين به ألا يمنعوا الناس من الطواف معه ، فصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم ، وقد غسل الكعبة بيديه ، وكان كثير العطف على أهل الحجاز . فعندما حدث القحط ببلادهم أمر السلطان أن يحمل إلى مكة القمح بكميات وفيرة .

وبعد ثلاثة عشر عاما من الحجة السابقة خرج للحجة الثالثة ، وزيارة بيت الله الحرام ، واصطحب معه زوجته « طغاى » وابنه « آنوك » وعندما علم بمؤامرة « بكتمر الساقى » أمر بأن تسير زوجه وابنه إلى الكرك ، وأن تستمر قافلته فى طريقها إلى الحجاز ، وأدى المناسك ، وكان من أمر بكتمر ما كان .

وكان الناصر يخشى الله ، ويقف عند حدوده لا يتجاوزها ، لذا كان يكره شرب الخمر ، وإن كان يهتم بالطعام ، ويعنى به عناية كبيرة ، فلم يكن غريباً أن يعج سماطه كل يوم بأنواع الطيور واللحوم المشوية من ضأن وغزلان وأرانب ، وصنوف الحلوى المختلفة .

ومن صفاته الخيرة أنه كان باراً ، عطوفاً بمماليك أبيه . يعرفهم جميعاً ، ويعرف أولادهم بأسمائهم ويعرف مماليكه ، ووظائفهم ، ويغدق عليهم ، وكان محباً للعلم والعلماء . يكرمهم ويقربهم منه ، وكان للمؤرخ المشهور «إسماعيل أبو الفدا » مكانة عظيمة عنده .

أما عن زوجات الناصر فهن أربع : أردكين ، والأميرة المغولية ، وطغاى ، وابنة الأمير تنكز .

أما « أردكين » فهى زوجة أخـيه السلطان الأشرف خليل . اضطر للزواج منها عندما قتل أخوه . فأنجبت له « عليـا » سنة ثلاث وسبعمائة ، ولكن حياة «على » انتهت وهو لا يزال فى سن الطفولة . فحـزنت أمه عليه حزناً شديداً ، وانقطعت الصلة التى كانت بينها وبين السلطان ، وانتهت حياتها معه بالطلاق، وأنزلها من القلعة لتعيش فى القاهرة .

أما الأميرة المغولية « طلنباى » فقـد كان زواجه منها زواجاً سياسياً . لأن الناصـر كـان يرغب فى أن يسـود السلام . فـرحب بعـقـد الصلح بينه وبين المغول ، ثم أراد توثيق ذلك الصلح فـأرسل يطلب خطبة إحدى أميـرات البيت المغـولى من بيت جنـكيـز خـان . لكن حـال دون إتمام ذلك الزواج الشـروط المتغاليـة من قبل المغول . إذ اشترطوا مـهراً قدره ألف ألف دينار ، وألف ألف فرس ، وألف عدة كاملة للحرب . فعدل الناصر عن ذلك الزواج . لكن « أزبك» أمير المغـول بعد ثلاث سنوات أرسل فتاة من أحـفاد « جنكيز خان » ومـعـها مائة وخمـسون رجلاً وستون جارية لخـدمتها ، ومعـهـا رسالة من والدها « أزبك» يأمل فيـهـا أن تحوز العروس إعـجاب السلطان . فرد عليـه « الناصر » بقـوله : « نحن لا نريد الحسن ، وإنما نـريد كبـر البيت ، والقـرب من أخى ، ونكون نحن وإياه شيئاً واحداً » وقـد ظلت هذه الأميرة زوجة للسلطان ثمانى سنوات ، ثم طلقها وزوجها من أحد الأمراء .

أمـا « طغاى » فكانت فـى الأصل جارية تركـيـة ، وكانت أحب زوجـات الناصر إليـه . فقد كـانت بديعة الحسـن ، باهرة الجمال ، وعندمـا عادت من الحجاز خرج السلطان للقائها ، وكـان الأمراء والعلماء يترجلون عند نزولها ، ويقـبلون الأرض لهـا ، كمـا يفـعلون للسلطان ، وقـد كـانت كثـيـرة الخيـر والصدقات ، وأنجبت للسلطان ابنه « آنوك » فى سنة ٧٢١هـ .

أمـا عن ابنه الأميـر « تنكز » وتدعى « خـوند مطلونبك » فـقد كـانت من المقربات إلـى السلطان بحكم العلاقـة الوثيقـة التى كانت تربط والدها الأمـير «تنكز » بالسلطان . تلـك العلاقـة التى ظلت قوية إلـى أن تغيـر السلطان على «تنكز » وأمر بقتله ، ولقد رزق الناصـر الكثير من البنين والبنات ، أما البنون فكانوا نحـو ست عشـر ولداً ، ولى السلطنة منهم ثـمانيـة ، وتوفى منهم فى حياته ثلاثة كان أخرهم « آنوك » .

وكانت زوجـته « طغـاى » إذا خرجت إلى النزهة ركـبت فرسـاً ، وأمسك بزمام الفرس أمـير من الأمراء ، وسـار حولهـا الخدم إلى أن تصل إلى النيل ، وتسير بها المركب حتى الجيزة .

وكـان الناصر مـحبـاً للخيل ، لأنـه كان فـارساً ، لذا اهتم بالاسطبـلات اهتمامـاً خاصاً فجعل لهـا موظفين ، وجعل على رأسهـا ناظراً ، وقد بلغ عدد خيـوله ثلاثة آلاف فـرس ، كان يعـرض عليه نتـاجهـا كل عام ، فـيعنى بـها ويسلمها لمن يعلمها ويروضـها .

وكان الـسلطان شغـوفاً بالصـيد . يخـرج إليه فى جـميع الأمـاكن . فى الصعيد وقليوب والبحـيرة ، واستلزم ذلك أن يجلب السلطان الطيور الجوارح التى تساعد على الصيد ، مثل الصقور والشواهين والسناقر .

وقد خرج ذات يوم إلى قليـوب للصيد ، ولسبب مـا وقع عن فرسه وهو يجرى فانكسرت يده ، وعاد إلى القلعة محـمولاً ، واستدعى الأطباء والمجبرين لعلاجـه وكان من بين المجبـرين رجل قال للسلطان : إن كنـت تريد أن تشفى سـريعاً ـ لا تدع أحـداً يداويك غيرى ـ بمفردى . وإلا فسـدت حال يدك . وقد سلمت رجلك لابن السـيسى فأفـسدها ، أمـا أنا فلن يمضى عليك شهـر حتى تركب وتلعب الكرة بيـدك ، وقد استـغرق العلاج سـبعة وثلاثين يومـاً شفى بعدها الناصر من كسره .

ولقد كان السلطان محبـاً للعب الكرة ومن أجلها أنشأ الميدان العظيم تحت القلعة .

أما من ناحـية المال فإن الناصر كان شـغوفاً بجمـيع أصناف الجواهر ، وقد وجد عنده الكثـير من الياقوت والأحجـار الكريمة والزمرد واللؤلؤ ، ولأن التجار يعرفون عنه ولعه باقتناء الجـواهر فقد تنافسوا فى إحضارها إليه من شتى البلاد .

وفاة الناصر

كانت وفاة « آنوك » ابن الناصر هـي بداية النهاية لهذا السلطان العظيم ، فقد أحب آنوك حباً شديداً ، وكانت وفاته ضربة قصـمت ظهره . فظل حزيناً عليـه .

فقد ألمت بالسلطان بعض الاضطرابات الصحية ، واضطر أن يلزم الفراش خمسـة أيام متوالية فى سنة ٧٤١هـ ثم اشتـد به المرض وبدأت نذر النهاية ، وأحس الناس بالخطر ، فـأخـذوا يدعون الله له بالشـفـاء حتى اسـتجـاب الله لدعـائهم وتماثل السلطان للشـفاء ، وبدأ الأمـراء فى إقـامة الولائم والأفـراح اغتباطاً بشفائه .

وفى صباح العيـد اجتمع الأمراء لدى السلطان استعـداد لخروجه لصلاة العيـد . لكنهم اختلفوا حـول نزوله لصلاة العيـد أو بقائه فى القصـر ، وكان رأى الأميـرين قوصـون وبشـتاك ، وهما أقوى الأمـراء ـ وكل منهما مـتزوج بابنة من بنات السلطـان ـ أن يتحـامل السلطان على نفـسه ، وينزل للصـلاة حتى لا ينزعج الشعب عليه ، ونزل « الناصر» إلى الميدان لصلاة العيد ، ولكنه لم يستطيع البقاء لتحرك المرض عليـه فرجع إلى القصر . وبدأ الخلاف يظهر بوضوح بين الأميرين بشتـاك وقوصون ، ولم تشفع رابطة المصاهرة فى منع هذا الخلاف . أما « بشتاك » فقد بدأ حيـاته بائعاً متجولاً فى البلاد ، ثم صار من الأمراء ، وقد امتاز بقامة مديدة وبياض فى البشرة ولحية خفيفة . وقربه الناصر إليه وأعلى مكانته ، ولكن بشتاك كان جريئاً فى تحدى السلطان .

أما « قوصون» فقد كان هو الآخر بائعاً متجولاً ، وقد كان جميل الخلقة أبيض البشرة ، مديد القامة . أعجب به الناصر ، وضمه إلى مماليكه ، وأخذ يترقى حتى وصل إلى أعلى المناصب . وعند ذلك تزوج السلطان بأخته كما تزوج هو بابنه السلطان .

وكان التنافس بين هذين الأميرين شديداً ، وحاول السلطان أن يصلح بينهما ، وأرسل إليهما فتصالحا أمامه واقترح الأمراء أن يعهد السلطان إلى أحد أبنائه بالملك بعده ، فاستجاب لرغبتهم ، واقترح أن يخلفه على العرش ولده « أبو بكر » ولكن بشتاك اعترض ، واقترح على السلطان أن يختار ولده « أحمد » فرفض السلطان ، وحذر الأمراء من أحمد ، لأنه فى نظره لا يصلح للعرش ، واستقر الرأى على أبى بكر ولياً للعهد .

ثم زاد المرض على الناصر محمد بن قلاوون بعد أن ظل يكافحه أحد عشر يوماً ، وأخيراً انتصر عليه الموت فى أول ليلة الخميس الحادى والعشرين من شهر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، وكانت سنه سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام ، وحمل داخل القبة ، وغسل ودفن مع أبيه تحت هذه القبة العظيمة « القبة المنصورية » .

وإذا كان الناصر محمد بن قلاوون توفى سنة ٧٤١هـ فإن الحكم ظل فى أعقابه من أولاده وأحفاده أكثر من أربعين سنة . أى حتى سنة ٧٨٤هـ وهى ظاهرة فريدة لم تحدث فى تاريخ المماليك ، لأنهم لم يؤمنوا بمبدأ الحق الوراثى فى الحكم ، مما يدل على مدى إخلاص الناس لبيت قلاوون ، وتأثرهم بعهد الناصر محمد بالذات .

الفهـــرس